مجلة كلية الدعوة الإسلامية

العدد الثامن عشر
2001

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1369 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم 2001 من ميلاد المسيح عليه السلام

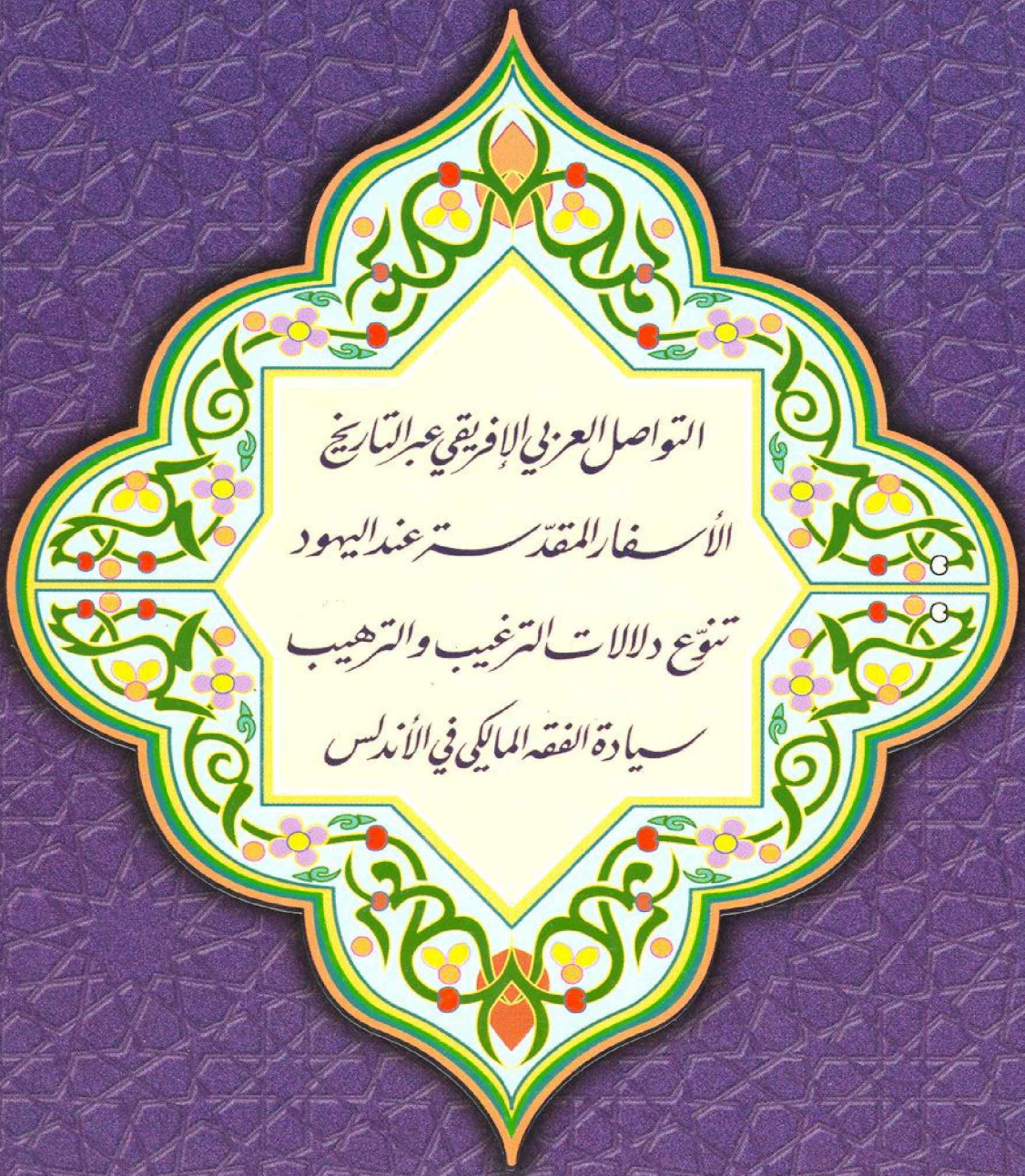

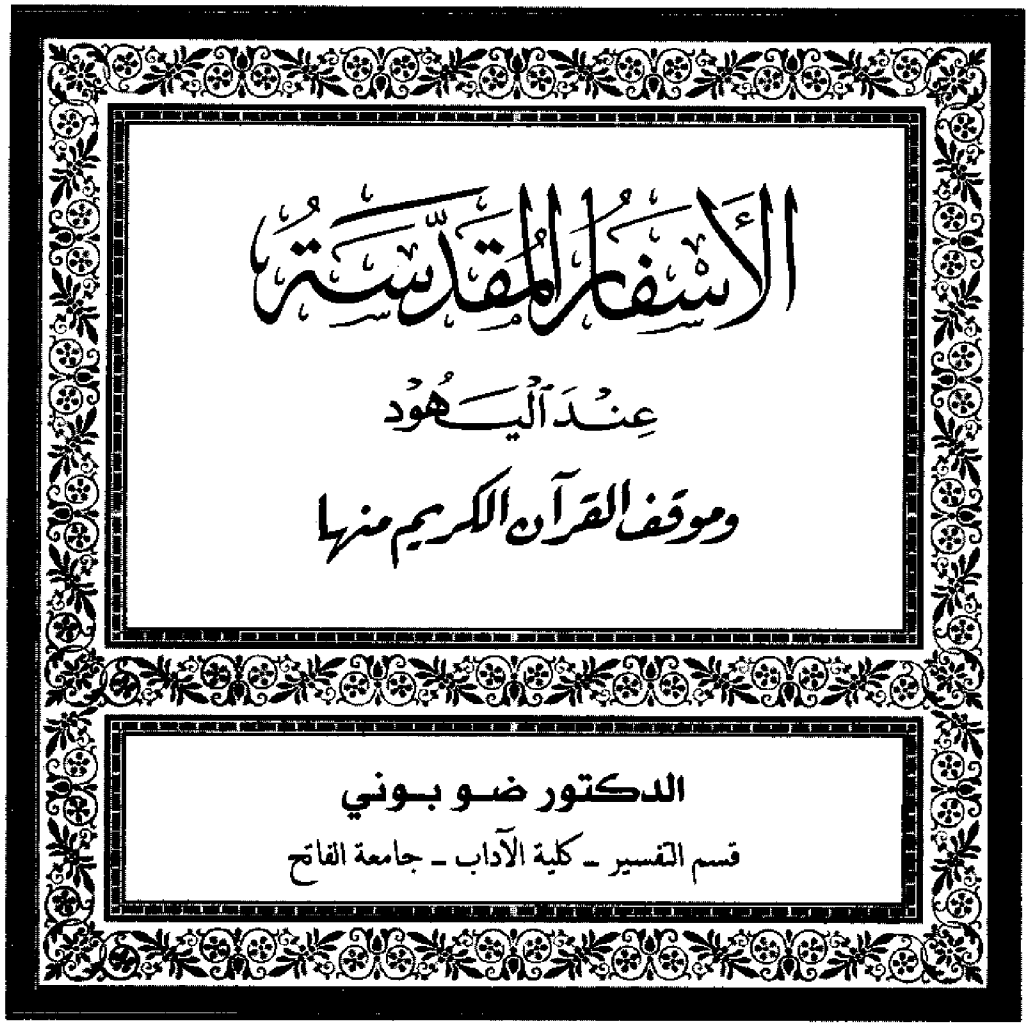

بادىء ذي بدء نحن نؤمن ـ بوصفنا مسلمين ـ بأن الله ـ عز وجل ـ أوحى إلى «موسى» ـ عليه السلام ـ التوراة فيها هدى ونور، وأنزل الزبور على داود عليه السلام ثم أنزل الإنجيل وحياً من عنده تعالى على عيسى عليه السلام مكملاً لما جاءت به التوراة. وأنزل القرآن الكريم على محمد بن عبد الله ﷺ فيه تبيان لكل شيء، فهو الدستور الإلهي الذي احتوى خلاصة ما في الكتب السابقة عليه، وأضاف إليها ما تحتاجه البشرية في مستقبل حياتها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. والإيمان بالكتب هو الإيمان بالرسالات جميعاً، وبالرسل أجمعين. وهو الإيمان بوحدة البشرية ووحدة إلهها، ووحدة دينها، ووحدة منهجها الإلهي،

ولهذا الشعور قيمة في شعور المؤمن الوارث لتراث الرسل والرسالات[1].

«وفي هذا مزية للمؤمنين من هذه الأمة على غيرهم من أهل الكتاب، الذين يفرقون بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض، كأنهم لم يعقلوا معنى الرسالة في نفسها، إذ لو عقلوها لما فرقوا بين من أوتوها[2].

والكتب الأولى لم تكن للبشرية عامة، فهي محدودة الزمان والمكان، ومن ثم أوكلت مهمة حفظها إلى المخاطبين بها، بخلاف القرآن الكريم الذي كان كتاباً للبشرية جمعاء، إنه المرحلة الأخيرة في اتصال السماء بالأرض، في موضوع الأوامر والنواهي، والتشريعات بصورة عامة، ومن تكفل الله بحفظه، فهيأ له من أسباب العناية ووسائل الرعاية، ما لم يهيئها لكتاب غيره. فلم تصل إليه يد التبديل والتغيير مثل الكتب الأخرى (التوراة والإنجيل)، التي لم تعد بوضعها الحالي، تتصل من قريب أو بعيد بالوحي الإلهي، الذي أنزله الله على رسله، إلا من ناحية الإطلاق التاريخي للأسماء. فالكتب المتداولة عند اليهود والنصارى لا تمت بصلة إلى التوراة، والزبور، والإنجيل التي جاء بها الأنبياء والمرسلون، والتي دعوا من خلالها إلى عبادة الله الواحد الأحد، وإلى مكارم الأخلاق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . . ونحن إذ نتحدث عن تلك الكتب والأسفار، لا نتحدث عنها باعتبارها كتباً إلهية، أو أننا نقر بما جاء فيها، وما علق بها من أوهام وأدران، وإنما هو البحث العلمي الذي يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة، فنحن نعيش في عالم تدين فيه شعوب كثيرة بأديان تدعي أنها إلهية، خاصة اليهود والنصارى، فالدراسة تهدف إلى تفنيد هذا الادعاء بكل موضوعية بعيداً عن التعصب والانحراف عن جادة الصواب.

أولاً: التوراة، أو العهد القديم

وهي التسمية العلمية لأسفار اليهود التي أطلقت عليها في العصور

---

(1) في ظلال القرآن. السيد قطب، 1/ 159، دار الشروق. الطبعة 11 (1402هـ، 1982م).

(2) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 3/ 144. الطبعة الثانية، أعيدت بالأفست. الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت ـ لبنان.

المسيحية، للتفرقة بينها وبين ما اعتمده المسيحيون من أسفار أطلقوا عليها «العهد الجديد».

والعهد القديم مقدس عند اليهود والنصارى، ولكن أسفاره غير متفق عليها، فبعض أحبار اليهود يضيفون أسفاراً لا يقبلها أحبار آخرون. فإذا جئنا إلى المسيحيين وجدنا النسخة الكاثوليكية تزيد سبعة أسفار عن النسخة البروتستانتية.

وتنقسم أسفار العهد القديم ـ عند اليهود ـ أربعة أقسام:

1 ـ التوراة أو أسفار «موسى» وهي: «سفر التكوين»، و«الخروج»، و«التثنية»، و«اللاويين»، و«العدد». وسفر «التكوين» يحكي قصة خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وقصة الخطيئة التي ارتكبها أبو البشر، ونزوله إلى الأرض، ثم حياة أولاده من بعده... وينتهي هذا السفر باستقرار بني إسرائيل في مصر، زمن «يوسف» عليه السلام.

أما «سفر الخروج» فيعرض تاريخ بني إسرائيل في مصر، وقصة «موسى» ورسالته، وخروجه مع بني إسرائيل، ويتحدث عن فترة «التيه» التي قضوها في صحراء سيناء، واستغرقت أربعين عاماً، وقتالهم بعد ذلك الكنعانيين سكان «فلسطين» الأصليين، ودخولهم أرض الميعاد. وبجانب هذا القصص يشتمل سفر الخروج على الوصايا العشر التي أعطاها الله «لموسى»، وبه أيضاً طائفة من أحكام الشريعة اليهودية في العبادات، والمعاملات، والحدود...

وأما سفر «التثنية» أو «تثنية الشريعة» فقد شغل معظمه بأحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحروب، والسياسة، والاقتصاد، والمعاملات، والعقوبات... وفي هذا السفر عرضت الوصايا العشر عرضاً جيداً، كما أعيد فيه الكلام على الأطعمة الحلال والحرام، وعن نظام القضاء، والملك عند بني إسرائيل، وتحدث أيضاً عن الكهنة، والنبوة، وعن انتخاب «يوشع بن نون» خلفاً «لموسى» وينتهي بخبر وفاة «موسى» ودفنه في «جبل مؤاب».

وأما سفر «اللاويين» أو «الأحبار» فيتضمن سرداً لمسائل العبادات، وخاصة ما تعلق منها بالأضحية، والقرابين، والمحرمات من الحيوانات والطيور. .

واللاويون هم من نسل «لاوي» أحد أبناء «يعقوب» وهم سدنة الهيكل، والمشرفون على شؤون المذابح والقرابين، والقوامون على الطقوس، والأعياد الدينية.

وأما «سفر العدد» فقد شغل معظمه بإحصائيات لأسباط بني إسرائيل، وجيوشهم، وأموالهم إلى غير ذلك مما يمكن إحصاؤه من شؤون حياتهم، ومن ثم سمي «سفر العدد» وبجوار هذا العد تناول هذا السفر الحديث عن سيرة بني إسرائيل في برية سيناء، وما بعدها، وفيه كثير من التنظيمات، والتعاليم الكهنوتية، والطقوس الدينية والمسائل الاجتماعية والدينية.

2 ـ «الأسفار التاريخية» وهي اثنا عشر سفراً، تعرض لتاريخ بني إسرائيل بعد استيلائهم على بلاد الكنعانيين، واستقرارهم في فلسطين، وتفصل تاريخ قضاتهم، وملوكهم وأيامهم، والحوادث البارزة في معظم حياتهم، وهي أسفار «يوشع بن نون» و«القضاة» و«راعوت» و«صموئيل» الأول والثاني و«الملوك الأول والثاني» و«أخبار الأيام» الأول والثاني و«عزرا» و«نحميا» و«استير».

3 ـ «أسفار الأناشيد» أو «الأسفار الشعرية» وهي أناشيد ومواعظ، وعددها خمسة أسفار: «سفر يعقوب» و«سفر أيوب» و«مزامير داود» و«أمثال سليمان» و«سفر الجامعة» و«سفر نشيد الأناشيد».

4 ـ «أسفار الأنبياء» وعددها سبعة عشر سفراً، وهي: «أسفار أشعيا» و«سفر أرمياء» و«مراثي أرمياء» و«سفر حزقيال» و«سفر دانيال» و«سفر هوشع» و«سفر يوئيل» و«سفر عاموس» و«سفر عوبيديا» و«سفر يونان» و«سفر

ميخا» و«سفر ناحوم» و«سفر حبقون» و«سفر صفنيا» و«سفر حجي» و«سفر زكرياء» و«سفر ملاخي»[3].

وهذه الأسفار في مجملها تسرد تواريخ، ومعارك بني إسرائيل، كما تتضمن عادات وقيم اليهود وأخلاقهم وأمثالهم، وتسابيحهم، وأغاني ينسبونها إلى «داود» و«سيلمان» عليهما السلام.

ثانياً: قيمة هذه الأسفار

وأهم أسفار «العهد القديم» هي أسفار القسم الأول، ويدعي اليهود أنها نزلت على «موسى» عن طريق الوحي الإلهي، إلا أن الأسلوب واللغة اللذين كتبت بهما هذه الأسفار، إلى جانب ما اشتملت عليه من موضوعات وأحكام، وتشريعات جعلت الكثير يتشككون في صحة هذا الادعاء، بل إن الدراسات الحديثة تحدد الفترة التي كتبت فيها هذه الأسفار فيما بين القرن التاسع، والخامس قبل الميلاد[4] (بعد موسى بحوالي خمسة قرون) ويقرر التاريخ: أن «موسى» عليه السلام كتب نسخة من التوراة، ووضعها مع اللوحين في التابوت[5].

ومرت الأيام، وظهر في بني إسرائيل كثير من الفجرة والكفرة، حتى جاء عهد «سليمان» وفتح التابوت بعد وضعه في الهيكل، فلم يجد به نسخة التوراة، وحدثت بعد «سليمان» أحداث عجيبة، وصلت إلى الردة، وعبادة الأوثان، وتعرض بيت المقدس للسلب والنهب والتدمير عدة مرات. وبعد سقوط مملكة «إسرائيل» بقيت مملكة «يهوذا» تعاني الاضطراب والفوضى، وكان اتجاهها يميل غالباً إلى الزندقة والكفر. وقبيل سقوطها آل السلطان إلى الملك «يوشيا»

---

(3) انظر: فهرس العهد القديم من الكتاب المقدس، ص45. طبعة دار الشروق 1989م. الناشر: المكتبة الشرقية. بيروت. لبنان.

(4) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، الدكتور علي عبد الواحد وافي، ص16، دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

(5) سفر الخروج، الإصحاح 25، آية21. ص197 من الكتاب المقدس (العهد القديم) مرجع سابق.

(629 ـ 598ق.م) ومال هذا الملك إلى العودة إلى الإيمان باتباع التوراة، رجاء أن يكون في هذا إنقاذ لمملكته، وكان يعاصره كاهن يسمى «حلقيا» انتهز فرصة هذا الميل عند الملك، فادعى ـ بعد سبعة عشر عاماً ـ من حكمه ـ أنه وجد نسخة التوراة في بيت المقدس[6].

ولا يقبل الباحثون هذا الادعاء، إذ لا يعقل أن توجد نسخة من التوراة في بيت المقدس ولا يراها أحد قبل عهد «يوشيا»، ولا خلال السبعة عشر عاماً الأولى من حكمه، ويعلل الباحثون أن «حلقيا» انتهز ميل «يوشيا» إلى العودة للدين، والعمل بالتوراة، فكتب خلال هذه الأعوام (السبعة عشر) ما أسماه أسفار التوراة، وليس ذلك ـ في الحقيقة ـ إلا من مخترعاته، ومما سمعه من أفواه الناس.

وهذا ينطبق أيضاً على معظم الأسفار الأخرى، حيث يجمع الباحثون ـ ومن بينهم علماء يهود ـ أن سفر «حزقيال» وضع أولاً، ثم وضعت من بعده وأضيفت إليه الأسفار والكتب الأخرى. وهذا يدل على أن هذه الأسفار كلها من وضع اليهود، وليست وحياً إلهياً، ولكي يوهم الأحبار والكهان شعبهم، وشعوب العالم أجمع، حتى يخضعوا لهذه الأسفار ادعوا نسبتها إلى أنبياء الله ورسله، ومن بينهم كليم الله «موسى» عليه السلام، ومبالغة منهم في الكيد أدخلوا فيها بعض الأقوال والوصايا التي يُشْتَمُّ منها رائحة الحق»[7]. ويمكن أن نورد بعض الدلائل على ذلك من واقع الأسفار نفسها:

1 ـ يوجد كثير من الاختلاف والتناقض بين تلك الأسفار: ففي كل من «سفري العدد والأحبار» شؤون ووصايا، وتشريعات مذكور بعضها في «سفر الخروج» السابق عليهما في الترتيب بصيغ مختلفة بالزيادة والنقص. ومع أن «سفر التثنية» احتوى تكراراً لكثير من الأحداث والتشريعات التي وردت في الأسفار الثلاثة السابقة عليه، فإن فيما احتواه زيادة ونقصاً،

---

(6) انظر: إظهار الحق، رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي، 1/ 288 ـ 291، دار الجيل. بيروت.

(7) البحث عن الحقيقة في أفكار ومعتقدات اليهود، محمد أبو القاسم الحاج. ص184. الطبعة الأولى 1990 منشورات جمعية الدعوة الإسلامية. طرابلس ليبيا.

ومغايرة لما ورد في هذه الأسفار، وهي أشهر من أن أذكر أمثلة لها.

وقد أورد «ابن حزم» نماذج كثيرة من هذه النصوص[8].

وفي كل من الأسفار الأربعة إشارات إلى ما سوف يحل ببني إسرائيل من مصائب، وشدائد، وإجلاء من أرض كنعان، وعودة إليها.. مما لا يعقل معه أن يكون إلا في حالة تعدد الكتاب، واختلاف أوقات الكتابة، واستقاء الكُتَّاب معلوماتهم من مصادر مختلفة، بينها كثير من التناقضات، لاختلاف الميول والاتجاهات. بل إن هذا التناقض لا يمكن أن يصدر من عاقل يدرك ما يقول، فضلاً عن أن ينسب إلى عالم الغيب والشهادة!!

وفي آخر إصحاحات «سفر التثنية» ذكر موت «موسى» ودفنه في الوادي، في أرض مؤاب. ثم أعقب هذا الخبر بهذه العبارة: «ولم يعرف قبره إلى يومنا هذا» مما فيه دلالة حاسمة على أن هذا السفر قد كتب بعد موت «موسى» بمدة طويلة[9].

2 ـ وفي مجال العقيدة وردت عبارات في التوراة تتنافى مع ما أجمع عليه الأنبياء والمرسلون من لدن «آدم» إلى «محمد» عليه الصلاة والسلام ـ من الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد، حيث ورد في «سفر الخروج»[10]: «ولما رأى الشعب أن «موسى» أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على «هارون» وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه؟ فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم، وبنيكم، وبناتكم، وأتوني بها فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم، وأتوا بها إلى «هارون» فأخذ ذلك من أيديهم، وصوره بالأزميل، وصنعه عجلاً

---

(8) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل 1/ 146 ـ 147. طبعة محمد علي صبيح.

(9) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، محمد عزة دروزة، ص17. الطبعة الثانية 1389هـ 1969م، منشورات: المكتبة العصرية. صيدا ـ بيروت.

(10) سفر الخروج: 32، ص208، ضمن مجموعة الكتاب المقدس. مرجع سابق.

مسبوكاً، فقال هذه آلهتك يا إسرائيل. التي أصعدتك من أرض مصر».

فمن هذا المقطع من التوراة ـ التي يدين بها اليهود، وقدستها النصارى ـ نلاحظ أن بني إسرائيل لم يستطيعوا الاستقرار على عبادة الله وحده، لأن مسألة الألوهية لم تكن عميقة الجذور في نفوس بني إسرائيل، فقد كانت المادية، والتطلع إلى الأسلوب النفعي في هذه الحياة من أكثر ما يشغلهم، وكان اتجاههم إلى التجسيم والتعدد واضحاً، والدليل على ذلك كثرة أنبيائهم، إذ كلما تجدد الشرك عندهم أرسل الله إليهم نبياً يجدد أمر الدعوة إليهم.

3 ـ وهذا النص ليس وحياً إلهياً على الإطلاق، لأنه ينسب صناعة التمثال إلى «هارون» عليه السلام ـ وحاشا لنبي من أنبياء الله من هذه الأباطيل، وما زال هذا الاعتقاد سائداً عند اليهود والنصارى. ولا شك أن الذي قام بهذا الضلال ودعا اليهود إليه هو «السامري» كما أعلن القرآن ذلك، قال الله تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[11].

وهذا ليس النص الوحيد الذي ينسب فيه كتاب التوراة إلى الأنبياء مثل هذه الافتراءات «إن عقلية اليهود، وثقافتهم، وطبائعهم، واعتقاداتهم هي التي كانت ولا تزال توحي إليهم بأن يفرغوا ما في أنفسهم من عقدهم النفسية وتعاليمهم على غيرهم من البشر ولو كانوا أنبياء[12].

ولذلك لم تخل أسفارهم من وصف الأنبياء بأحط وأقذر الصفات، فهذا «إبراهيم» ـ عليه السلام يصفونه بأحط ما يمكن أن يوصف به بشر، ويصمونه بما لا ترضى به السوائم، فقد اتهموه بأنه كان يتاجر بامرأته، إذ جاء في «سفر التكوين»: «وحدث جوع في الأرض، فانحدر «إبرام» إلى مصر.. وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال «لساراي» امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون، أنهم يقولون هذه امرأته، فيقتلونني، ويستبقونك، فقولي إنك أختي، ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفسي من

(11) سورة طه، الآيتان: 76 و78.

(12) البحث عن الحقيقة في أفكار ومعتقدات اليهود، محمد أبو القاسم الحاج. ص94. مرجع سابق.

أجلك، وحدث لما دخل «إبرام» إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة.. فمدحوها لدى «فرعون» فأخذت إلى بيت «فرعون» فصنع إلى «إبرام» خيراً بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير، وعبيد وإماء[13].

هذا هو منهج كتاب الأسفار عند الحديث عن الأنبياء، وهم خلاصة البشر ـ فلم يستح كاتبوا الأسفار، وخاصة «سفر التكوين» من أن يرينا نبياً من الأنبياء، وهو يبيع امرأته، ولم يذكر لنا كتاب «العهد القديم» موقفاً واحداً من مواقف «أبي الأنبياء» ينم عن دعوة هذا الرجل لله، أو استجابة أحد له. بل إن بعض شراح «العهد القديم»، وهو القس «وليم مارش» قد راح في موسوعته يقول بغير حياء، وبغير عقل أيضاً: «ويظهر أن «إبراهيم» حين ترك «حاران» اتفق هو و«ساري» على أن تقول أخته، وهذا بحسب النظر إلى «إبراهيم» غريب، فإنه ترك أرض ميلاده، إطاعة لأمر الله، وذهب غريباً ينتقل من مكان إلى مكان، ومع هذا ارتكب ذلك، وهو ما يؤول إلى أخذ امرأته منه، ولعل «إبرام» أتى ذلك، لينقذ نفسه، واتكل على نباهة امرأته في إنها تخلص نفسها من المصاعب، ولكن في كل الأحوال ما أتاه دليل على ضعف الإنسان، ولا سيما إنسان سامي السجايا محسوب من أفاضل البشر[14].

وهكذا لا يستحيي كتاب «العهد القديم» أو شراحه من خلع مثل تلك المهانات على أنبياء الله، وخاصة نبي مثل «إبراهيم» أوحى الله إليه، وبلغ عن ربه، ورتبته عند الله على ضوء ما كلفه به من شرف النبوة، لا تجعله يقع في مثل هذا الإثم الذي يزعمه هؤلاء الكتاب.

وهذا «يعقوب» يصفونه بالغش والخداع والكذب لينال ميراث أبيه دون أخيه «عيسو»، ويصف «سفر التكوين»[15] المحاولات التي قام بها يعقوب، ليصل إلى غايته: وحدث لما شاخ «إسحاق» وَكلَّت عيناه من النظر، أن دعا

---

(13) سفر التكوين: 12. ص86. ضمن مجموعة الكتاب المقدس. مرجع سابق.

(14) انظر: السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم، وليم مارش 1/ 113. صادر عن مجمع الكنائس في الشرق الأردني. بيروت 1973م.

(15) انظر: سفر التكوين: إصحاح 27. ص108 ضمن مجموعة الكتاب المقدس (العهد القديم).

«عيسو» ابنه الأكبر وقال له: يا بني إنني قد شخت، ولا أعرف يوم وفاتي، فالآن خذ عدتك، واخرج إلى البرية، وتصيد لي صيداً، واصنع لي طعاماً كما أحب، وأتني به لآكل منه حتى تباركك نفسي قبل أن أموت، وكانت «رفقة» سامعة إذ تكلم «إسحاق» مع «عيسو». فنقلت ذلك لـ «يعقوب» ابنها، وقالت له: اذهب إلى الغنم، وأحضر لي جديين، فأصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب، وتحضرها إلي أبيك ويباركك.. فدخل «يعقوب على أبيه، وقال: أنا «عيسو» بكرك، قد فعلت كما كلمتني، قم اجلس، وكل من صيدي لكي تباركني. وينهي كاتب السفر هذا الافتراء على «يعقوب» بقوله: إن «إسحاق» قال لـ «يعقوب» تقدم وقبلني يا بني، فتقدم وقبله فشم رائحة ثيابه ـ وكان قد ارتدى ثياب أخيه «عيسو» واعتقد أنه «عيسو» فدعا له، وباركه قائلاً: فليعطك الله من ندى السماء، ومن دسم الأرض، وكثرة حنطة وخمر، لتستعبد لك الشعوب، وتسجد لك قبائل، كن سيداً لإخوتك، وليسجد لك بنو أمك، ليكن لاعنوك ملعونين، ومباركوك مباركين».

ويظهر من النص الأخير أن اليهود يريدون أن يضفوا الشرعية على نظرتهم إلى الأمم الأخرى، التي ينبغي، كما يزعمون، أن تكون مستعبدة وخادمة لهم، باعتبارهم شعب الله المختار، فمن يلعن اليهود يكون ملعوناً، ومن يباركهم يكون مباركاً في الأرض. ونسي كاتب هذه الأكاذيب، أن أول من يستحق أن تنزل عليه لعنة الله، والملائكة والناس أجمعين، من يتهم الأنبياء والمرسلين بما لا يليق بعوام الناس فضلاً عن خواصهم.

وهذا «موسى» عليه السلام لم يسلم من افتراءاتهم، ومن أبرز التهم التي ألصقت به، ما يذكره «سفر الخروج»[16] من موافقة «موسى» على سرقة الإسرائيليين حليّ المصريين، تنفيذاً لوصية الرب التي أوصاه بها وبلغها إلى قومه فعملوا بها: «وأعطى نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين، فيكون حين تمضون أنكم لا تمضون فارغين، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها

(16) انظر: سفر الخروج: إصحاح 3/ 21 ـ 22 من الكتاب المقدس (العهد القديم).

أمتعة فضة، وأمتعة ذهب، وثياباً، وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين».

ويعلق الأستاذ «محمد عزة دروزة» على هذا النص بقوله: ومهما كان من أمر فإن تسجيل هذا الخبر بهذا الأسلوب، يدل على ما كان، وسيظل يتحكم في نفوس بني إسرائيل من فكرة استحلال أموال الغير، وسلبها بأية وسيلة، ولو لم تكن في حالة حرب، ودفاع عن النفس، كما أنه كان ذا أثر شديد في رسوخ هذا الخلق العجيب في ذراريهم، ثم فيمن دخل في دينهم من غير بني جنسهم[17].

وترسم التوراة المزعومة صورة بشعة لـ «داود» عليه السلام حيث جاء فيها: أرسل «داود» قائده «يؤاب» وجنوده، ومن بينهم جندي اسمه «أوريا» فخربوا «بني عمون» وحاصروا «ربة» وأما «داود» فأقام في «أورشليم» وفي المساء قام «داود» عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى امرأة تستحم، وكانت جميلة المنظر جداً، فأرسل في طلبها، فجيء بها إليه، وزنا بها فحملت المرأة، وأرسلت إلى «داود» تخبره بذلك، فما كان منه لكي يستر الفضيحة إلا أن يرسل في طلب زوجها «أوريا» ولكن الرجل لما رجع لم يتصل بزوجته، ورفض التنعم، بينما إخوانه يواجهون الموت، وحينئذ أعاده إلى الجبهة، ومعه مكتوب من «داود» إلى «يؤاب» يقول فيه: «اجعلوا» أوريا «في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من وراءه فيضرب فيموت»[18].

وبعد موته ضمّها «داود» إلى بيته زوجة، وهذه الزوجة هي أم سليمان «عليه السلام» التي حبلت به بعد أن غدت زوجة «داود» الشرعية، أما الولد الذي حملت به سفاحاً منه، فقد ضربه الله وأماته انتقاماً من «داود» لأنه استاء من عمله الفاحش[19].

وقد بلغ التزوير منتهاه في التوراة عند حديثها عن نبي الله «سليمان» حيث

---

(17) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم. ص68. مرجع سابق.

(18) راجع الإصحاح 1 من سفر صموئيل الثاني، آية 15. ص593 من الكتاب المقدس والعهد القديم.

(19) المرجع السابق الإصحاح 12. آية 24. ص595 من الكتاب المقدس (العهد القديم).

اتهمته بالشرك الأكبر، والعياذ بالله تعالى: جاء في الإصحاح الحادي عشر من «سفر الملوك الأول» ما يلي: وأحب الملك سليمان نساءً غريبة كثيرةً مع بنت فرعون. . . من الأمم الذين قال فيهم الرب لبني إسرائيل: لا تدخلوا إليهم ولا يدخلون إليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، والتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكان له سبعمائة من النساء السيدات، وثلاث مائة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه، وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه مع الرب إلهه[20].

وبعد فهذه نبذة مختصرة عن بعض ما اشتملت عليه التوراة من مزاعم وأباطيل في حق الله، ثم في حق أنبيائه ورسله، وهذا يدل دلالة قاطعة على أنها حرفت وبدلت، وخضعت للميول والرغبات البشرية، خاصة إذا علمنا أن اليهود يسعون إلى السيطرة على شعوب الكرة الأرضية قاطبة، وتسخيرها لخدمتهم، ولا يتم ذلك إلا بنشر الرذائل والفساد في المجتمع البشري بالتركيز على الجانب المادي في الإنسان، ومحاولة إشباعه بإغراقه في الشهوات والملذات البهيمية.

ولتحقيق هذا الهدف لم يتورعوا في نسبة أمثال هذه الأباطيل إلى المصطفين الأخيار من الأنبياء والرسل، حتى يضفوا الشرعية على هذه الأعمال الدنيئة، ويقنعوا العوام بها باعتبارها من سيرة هذه الخلاصة البشرية نعوذ بالله من الضلال والإضلال.

ولو أردنا أن نتتبع مثل هذه الادعاءات لما وسعنا المقام، وذلك يعود إلى ضخامة الموضوع وتشعبه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الفكر اليهودي يغلب عليه طابع السرية، والتغير وفق مقتضيات الأمور، وهم في جميع الأحوال يحاولون أن يضفوا على هذه الأفكار طابع القداسة والإجلال، لأن أقوال «الحاخامات» هي قول الله الحي، وأن الله يستشير «الحاخامات» عندما توجد مسألة معضلة لا يمكن حلها إلا في السماء»[21].

---

(20) انظر: سفر الملوك الأول. إصحاح 11. آية 3 ص651 من الكتاب المقدس (العهد القديم).

(21) الكنز المرصود في قواعد التلمود، لروهلنج، ترجمة الدكتور يوسف نصر الله ص32 ـ 33. بتصرف، الطبعة الأولى 1899م. مطبعة المعارف بمصر.

ولقد خلد القرآن هذا الخلق فيهم بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[22].

والدليل على ذلك أنهم استبدلوا «التلموذ» «بالتوراة» ويعتبره أكثر اليهود كتاباً منزلاً، ويضعونه في منزلة «التوراة»، ويرون أن الله أعطى «موسى» التوراة على طور سيناء مدونة، ولكنه أرسل على يديه «التلموذ» شفاهاً، ولا يقنع بعض اليهود بهذه المكانة «للتلموذ» بل يضعون هذه الروايات الشفهية في منزلة أسمى من التوراة[23].

وبعد ميلاد المسيح عليه السلام خشي «الحاخامات» على هذه الروايات من الضياع فجمعت في كتاب سمي «المشنا» ومعناها الشريعة المكررة، وهي أول لائحة وضعها اليهود لأنفسهم بعد التوراة، جمعها «يهوذا هاناسي» فيما بين 190 و200م.

وهي خلاصة القانون الشفهي الذي تناقله «الحاخامات» منذ ظهور حركة «الفريسيين» التابعين لأهواء النفس، ونشطت حركتهم بعد ظهور «عيسى بن مريم» عليه السلام مما أدى أخيراً إلى تسجيل المبادىء الهدامة التي قامت عليها دعوة «الفريسين» التي استنكرها «المسيح»[24].

واستعصت «المشنا» على بعض القراء، فأخذ علماء اليهود يكتبون عليها حواشي كثيرة، وشروحاً مسهبة، وسميت هذه الحواشي وتلك الشروح باسم «جمارا» ومعناها الإكمال، فبعد أن تمت «المشنا» جمعاً وتدويناً، بدأ أحبار اليهود وكهانهم يشرحونها، ويعلقون عليها، ويضيفون إليها ما يرون إضافته، ويحذفون ما يرون ضرورة لحذفه من أفكار ونصوص. و«الجيمارا» نوعان: «جمارا فلسطين أو أورشليم» و«جمارا بابل» وهما يكونان «التلمود الأورشليمي

---

(22) سورة البقرة، الآية: 78.

(23) انظر: اليهودية، الدكتور أحمد شبلي، 266، الطبعة السابعة 1984م، مكتبة النهضة المصرية.

(24) التلمود تاريخه وتعاليمه، ظفر الإسلام خان ص 11 ـ 12. الطبعة الرابعة 1401هـ ـ 1981م. دار النفائس ـ بيروت.

والبابلي» و«التلمودان» لا يختلفان في النص الأصلي «المنشا» وإنما يختلفان فيما أضيف إليهما من شروح وقصص وخرافات[25].

وقد وضعت تراجم عديدة للتلمود إلى عدة لغات، لكنها محذوفة الحواشي والأقسام التي لا يجوز الاطلاع عليها لغير «الحاخامين» المتقدمين في «اللاهوت». وحادثة فريدة نموذجية وقعت في «دمشق» تعطينا فكرة واضحة على حرص اليهود على سرية التلمود، ففي حادثة الراهب «توما» الذي قتل هو وخادمه في «دمشق» عام 1840م للحصول على الدم لخلطه بعجين الفطير المقدس، وقد جرت عملية الذبح واستصفاء الدماء البشرية في جو من الفرح والرقص والغناء، وذلك حتى تتم المراسم والطقوس حسب شريعة هؤلاء المردة التي اصطنعوها لأنفسهم ـ قبض على «الحاخام موسى أبو العافية» الذي اعتنق الإسلام فيما بعد، وقام بترجمة نصوص سرية من التلمود، وقد حاول اليهود في دمشق وغيرها من بلاد الأرض دفع أموال طائلة مقابل عدم نشر هذه الترجمة، حتى لا تثير الرأي العام ضدهم[26].

ومجمل القول: فإن «التلمود» من الكتب الشديدة السرية التي لا يحصل عليها الإنسان بأي حال، فهو غير مسموح بتداوله لغير اليهود. وقد تمخض عنه في هذا العصر كتاب آخر يسمى «بروتوكلات حكماء صهيون» وهو عبارة عن البرنامج الفعلي لما جاء في التلمود من أفكار شيطانية، ووساوس يهودية، ذات مرام، وطموحات خبيثة تستهدف البشرية جمعاء بقصد السيطرة عليها، وحكمها يهودياً[27].

ومن هنا نستطيع القول بكل يقين: إن الدين اليهودي ـ الذي بين أيدينا ـ لا يستند في كثير من أحكامه وتشريعاته إلى الوحي الإلهي، إذ يظهر في هذه

---

(25) البحث عن الحقيقة، محمد أبو القاسم الحاج، ص 192. مرجع سابق.

(26) لمزيد من التفصيل في هذه القضية راجع رواية: «دم لفطير صهيون» تأليف: نجيب الكيلاني. الطبعة الأولى 1971م، الناشر: دار النفائس، بيروت. وهي رواية مدعمة بالوثائق والمقتطفات الحقيقية من ملفات التحقيق.

(27) البحث عن الحقيقة، محمد أبو القاسم الحاج، ص 205. مرجع سابق.

الشريعة كثير من مظاهر الانحراف والتضارب، واختلاط المسائل، وهذا دليل على أن هذه الأسفار من صنع أيديهم، وأنها كتبت في عصور متعددة، لأن كل سفر منها يعكس التقاليد والنظم التي كانوا يسيرون عليها في ذلك العصر، وأن الكهنة كانوا يعتمدون على ما سمعوه، وما تلقاه الخلف عن السلف من أخبار وأساطير وأقوال، بل إن الكهنة كثيراً ما كانوا يكتبون ما يدور بخيالهم من أماني وأحلام، على أنها حقائق واقعة، يضاف إلى ذلك قرارات المحافل اليهودية، التي تعتبر مصدراً مهماً للأسفار.

«فعلى مر التاريخ كان زعماء اليهود يدفعون بقراراتهم، لتصير جزءاً من الأسفار المقدسة، وعندما اتخذت الأسفار وضعها النهائي قبيل الميلاد، لم يتوقف زعماء اليهود عن محاولاتهم تقديس هذه القرارات، فدفعوا بها إلى التلمود، ثم بعد ذلك إلى بروتوكلات حكماء صهيون، وليس هذا وذاك عندهم بأقل قداسة من العهد القديم»[28].

يقول الدكتور «موريس بوكاي»: إذا كانت المسائل التي تطرحها رواية القرآن لم تلق ـ حتى يومنا توكيداً من المعطيات العلمية، فإنه لا يوجد، على أي حال، أقل تعارض بين المعطيات القرآنية الخاصة بالخلق، وبين المعارف الحديثة عن تكوين الكون. ذلك أمر يستحق الالتفات إليه فيما يخص القرآن، على حين قد ظهر بجلاء أن نص العهد القديم ـ الذي نملكه اليوم ـ قد أعطى عن هذه الأحداث معلومات غير مقبولة من وجهة النظر العلمية.

وكيف لا ندهش لذلك خاصة إذا علمنا أن النص الأكثر تفصيلاً عن رواية الخلق في التوراة، قد كتب بأقلام كهنة عصر النفي البابلي، وقد كان لهؤلاء الكهنة أهداف تشريعية... فاصطنعوا لتلك الأهداف رواية تتفق ونظراتهم اللاهوتية[29].

---

(28) اليهودية، الدكتور أحمد شبلي، ص 206. مرجع سابق.

(29) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة. الدكتور موريس بوكاي ص 172. منشورات جمعية الدعوة الإسلامية. طرابلس ـ ليبيا.

ثالثاً: موقف القرآن الكريم من التوراة والإنجيل

يعترف القرآن بالتوراة التي أنزلها الله على «موسى» قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾[30]. فيما عدا ذلك فإن الإسلام لا يعترف به، فسفر «يوشع» وسفر «القضاة» والملوك... ليست من الكتب المقدسة في نظر الإسلام.

ونظرة القرآن إلى «التوراة» نظرة موضوعية تعتمد الواقع، وتنطلق منه، وهذا الواقع يمكن تقسيمه إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى:

يعلمنا القرآن أن كل رسول يرسل، وكل كتاب ينزل، يأتي مصدقاً ومؤكداً لما قبله، فالإنجيل مصدق، ومؤيد للتوراة قبله. والقرآن مصدق ومؤيد للإنجيل والتوراة ولكل ما قبله من الكتب. ولكن ليس معنى التصديق، أن يكون المتأخر صورة طبق الأصل من المتقدم، ولكن على معنى أن الأحكام التي جاء بها المتقدم هي من عند الله، وأن هذه الأحكام منها ما هو باقٍ خالد، فيأتي الدين الجديد مقرراً لتلك الأحكام الكلية التي لا تختلف باختلاف الأمم والزمان. ومنها أحكام وتشريعات موقوتة بآجال. قد تطول، وقد تقصر، فهذه تنتهي بانتهاء الأجل المضروب لها، فيأتي الدين الجديد بأحكام أخرى أوفق للعباد والبلاد، ولكن هذا لا يعد نقضاً من المتأخر للمتقدم، ولا إنكاراً لحكم تشريعاته في وقتها، بل وقوفاً بها عند غايتها، وأجلها المقرر.

«ولولا اشتمال الشريعة على هذين النوعين ما اجتمع فيها العنصران الضروريان لسعادة المجتمع البشري: عنصر الاستمرار الذي يربط حاضر البشرية بماضيها، وعنصر الإنشاء والتجديد، الذي يعد الحاضر للتطور والرقي اتجاهاً إلى مستقبل أفضل»[31].

---

(30) سورة آل عمران، الآيتان: 2 و3.

(31) الدين. الدكتور محمد عبد الله دراز، ص 179.

هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات في بناء صرح متكامل تستظل به البشرية، ويرشدها إلى الطريق القويم الموصل إلى سعادة الإنسان في الدارين.

وكان الإسلام هو الدين الخاتم واللبنة الأخيرة التي أكملت البنيان، وتمت به نعمت الله على البشرية، فكانت آخر آية نزلت في دستور هذا الدين: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[32].

وقد صور النبي ﷺ دوره في تشييد ذلك الصرح أوضح صورة بقوله: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون. ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[33].

المرحلة الثانية:

إذا كانت مهمة القرآن التصديق بكل ما جاءت به الكتب السابقة عليه من أحكام وتشريعات وعقائد، فإن من مهامه أيضاً أن يحافظ على تلك الشرائع والأحكام، حتى تسير في مسارها الذي ارتضاه الله لها، فإذا خرجت تلك الأديان على هذا المسار كان لزاماً على القرآن أن لا يقف موقف المتفرج الذي لا يعنيه شقاء الناس أو سعادتهم، لذلك أضيفت إليه مهمة أخرى ـ إلى جانب التصديق ـ وهي الهيمنة على تلك الكتب، أي الحارس عليها، ومهمة الحارس الأمين لا تقتصر على تأييد ما خلده التاريخ فيها من حق وخير، بل عليه فوق ذلك أن يحميها من الدخيل الذي عساه أن يضاف إليها بغير حق، وأن يبرز ما عساه أن يكون قد أخفي منها.

ولهذا كانت مهمة القرآن أن ينفي عنها الزائد، وأن يتحدى من يدعي وجودها في تلك الكتب ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[34].

---

(32) سورة المائدة، الآية: 4.

(33) رواه البخاري من حديث أبي هريرة. كتاب المناقب باب خاتم النبيين. حديث 3535 فتح الباري، 6/ 558. المطبعة السلفية، القاهرة.

(34) سورة آل عمران، الآية: 92.

كما أن عليه أن يبين ما ينبغي تبيينه مما كتموه منها ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[35].

وجملة القول: إن علاقة القرآن بالديانات السماوية في صورتها الأولى هي علاقة تصديق وتأييد كلي، وإن علاقته بها في صورتها المنظورة اليوم علاقة تصديق لما بقي من أجزائها الأصلية، وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والإضافات الغريبة[36].

(35) سورة المائدة، الآية: 16.

(36) من أهم المراجع التي اعتمدت عليها في هذا الموضوع الأخير (موقف القرآن الكريم) البحث القيم الخاص بموقف الإسلام من الأديان الأخرى الذي ألحق بكتاب «الدين» للمرحوم: الدكتور محمد عبد الله دراز، ص 175 ـ 185.